وصيّة الأب كريستيان شرجه

" عندما يواجه المرءُ الوداع..."

(كان الأب كريستيان دي شرجه، رئيس دير السيّدة في أطلاس، قبل مقتله، قد أرسل إلى عائلته كتاباً مختوماً مكتوباً بخطّ يده:" عندما يواجه المرء الوداع...". وتحمل الرسالة نصاً مكتوباً في تاريخين: الجزائر في ١ كانون الأول ١٩٩٣، والبحرين في ١ كانون الثاني ١٩٩٤. وقد فتحت الرسالة صباح أحد العنصرة في ٢٦ أيار١٩٩٦. وهذا هو نص الرسالة، وهي بمثابة وصيّته الأخيرة):

إذا حدث لي يوماً- وقد يكون اليوم- أن أكون ضحيّة الإرهاب، الذي يبدو كأنّه يريد أن يشمل الآن جميع الغرباء العائشين في الجزائر، أحبُّ أن تتذكّر جماعتي الرهبانية، وكنيستي، وعائلتي، أنّ حياتي قد وهبتُها لله ولهذه البلاد.

ليقبلوا أن السيّد الأوحد لكلّ حياة لن يسعه أن يكون غريباً عن رحيلي الوحشيّ هذا. فليصلّوا من أجلي: كيف أجد نفسي أهلاً لمثل هذه التقدمة؟
وليتعلّموا أن يضمّوا موتي هذا إلى ميتات أخرى عديدة عنيفة، بقيت مجهولة ولم يكترث لها أحد. ليس لحياتي ثمن أكثر ولا أقلّ من أيّ حياة أخرى. في كلّ حال، ليس لها براءة الطفولة. فقد عشتُ عمراً كافياً لأعرف نفسي أنّي شريكٌ في الشرّ، الذي يبدو، بالأسف، طاغياً في العالم، وشريك حتى في ذلك الشرّ عينه الذي قد يضربني بغير تمييز.
وأحبّ، عندما يحينُ الأجَل، أن يُتاح لي هنيهة من الصفاء تسمح لي أن أطلب الغفران من الله، ومن إخوتي في الإنسانية، وفي الوقت نفسه أن أغفر من كلّ قلبي لمن يكون قد أوقع بي.
لا يسعني أن أتمنّى مثل تلك الميتة. ويبدو لي هامّاً أن أعترف بذلك. فإنّي لا أرى في الواقع كيف أستطيع أن أفرح بأن يُتّهم بقتلي دونما تمييز هذا الشعب الذي أحبُّه.
وسيكون غالياً جداً ثمن ما قد يسمّونه **"نعمة الاستشهاد"** إذا وجب أن أحصل عليها على يد جزائري، أيا كان، وخصوصاً إذا صرّح أنّه يفعلُ ذلك أمانةً لما يظنُّه أنّه الإسلام.
أنا أعرف الاحتقار الذي استطاع أن يحيطوا به الجزائريين بصورة إجمالية. وأعرف أيضاً الصورة الساخرة عن الإسلام التي يشجّعها نوع من التفكير المثالي.
وإنه لمن السّهل جداً أن يريح المرء ضميره، عندما يخلطُ بين هذه الطريقة الدّينية وتعصّب بعض المتطرّفين فيها.
فالجزائر والإسلام، بالنسبة إليّ، هما شيء آخر، هما جسد وروح. ولقد أعلنتُ ذلك مراراً، كما أظنّ، على مرأى ومعرفة ما قد أخذته عنهما، لأني أجدُ فيهما غالباً الخطّ القويم الأساسي للإنجيل، الذي حفظتُه في حضن أمي، كنيستي الأولى، وبالتحديد هنا في الجزائر، وفي احترام المؤمنين المسلمين.

سيبدو موتي بوضوح كأنّه يعطي حقاً للذين نعتوني حالاً بالساذج والمثالي: **" ألا، فليقل الآن ماذا يفكّر فيّ الإسلام!".**

ولكن على هؤلاء أن يعرفوا أن فضوليّتي الحادّة ستكون أخيراً قد تحرّرت. وها أنذا أستطيع، إن شاء الله، أن أغرز نظري في نظر الآب، لأتأمّل معه أولاده في الإسلام، كما يراهم، مغمورين بنور مجد المسيح، ثمرة آلامه، ولابسين عطيّة الروح، الذي سيبقى أبداً فرحه الخفيّ أن يقيم الشّركة، ويعيد الائتلاف من خلال الاختلاف.

ومتى خسرت حياتي هذه، التي هي كلّها لي، وكلّها لهم، أرفع الشكر إلى الله الذي يبدو أنّه أرادها كاملة، من أجل ذلك الفرح، تُجاه كلّ شيء ورغم كلّ شيء.

في هذا الشكر، الذي قلتُ فيه منذ الآن كلّ شيء عن حياتي، أضمّكم بالتأكيد جميعاً، أنتم أصحابي في الأمس واليوم، وأنتم أصحابي هنا، إلى جانب أمي وأبي، وأخواتي واخوتي وذويهم، أنتم المئة ضعف التي أعطاني إياها الربّ كما كان قد وعد.

وأنت أيضاً، يا صاحبي في الدقيقة الأخيرة، يا من لن تكون قد أدركتَ ماذا كنتَ تفعل، نعم، لك أيضاً أريد هذا الشكر، وهذا الوداع الذي سأواجهه عن يدك.
وليُعطنا الله أن نعود فنلتقي، لصّيْن تائبيْن سعيديْن، في الفردوس، إن شاء الله أبونا كِلَينا نحن الاثنين معاً. آمين.